معارف وقائيّة، ومعرفة وسائل الوقاية

فيرمان مبالا (Firmin Mbala)
متخصص في حقوق الإنسان والتنمية الدولية
mbalafirmin@gmail.com

مام-بندا با (Mame-Penda Ba)، أوليفييه دانغل (Olivier Dangles,) ، فيصل غربا، محمد الجويلي، توسّان كافارهير (Toussaint Kafarhire) ، فيليب لافين دلفيل (Philippe Lavigne Delville)، فريدريك لوفو (Frédérique Louveau)، نادين ماتشيكو (Nadine Machikou)، سارة مجدوبي، أوشينا أوكيجا (Uchenna Okeja)، ميراي رازافيندراكوتو (Mireille Razafindrakoto) وشيخ صديبو ساخو (Cheikh Sadibou Sakho)

redaction@globalafricasciences.org

يُفتتح هذا العدد الخاص من مجلة غلوبال أفركا (*Global Africa*) بنداء مزدوج التأويل: أولهما، يتمثّل في التفكير في المعارف الوقائيّة باعتبارها أشكالاً للمقاومة؛ وثانيهما، مساءلة قدرتنا الجماعية على بلورة أخلاقيات للوقاية. إذ إن الحماية لا تُعدّ مجرد استجابة إنسانية تلقائية أو واجبًا أخلاقيًا مجرّدا، بل هي فعل سياسي بامتياز، وموقف مشروط بسياقات محددة، تتقاطع فيه علاقات سلطويّة مع الموروثات التاريخية، والتفاعلات المعاصرة، وأشكل مختلفة من هشاشة غير متكافئة.

والمعارف الوقائيّة، كما نتناولها في هذا السياق، لا تنتمي إلى الحقول التقنية الصرفة، ولا تنبع من تقاليد متحجرة. إنّها نتاج تفاعلات اجتماعية متشابكة، وممارسات معيشيّة يومية، وإفرازات لذكاء جماعي محلي. ولكونها تتحقّق ضمن سياقات يسودها العنف البنيوي، وتتميّز بعدم استقرار المؤسسات، وهشاشة النظام الديمقراطي، فهي تمكّن من الحفاظ على الحياة وصون الكرامة الإنسانيّة والذاكرة الجماعيّة. وغالبًا ما تُواجه هذه المعارف بالتهميش أو التعتيم، بل قد تُجرّم أحيانًا، لا لشيء إلّا لأنها تتعارض مع منطق سيطرة المؤسّسات الحكوميّة ، أو تُخالف المعايير المعرفية السائدة والمهيمنة.

. ففي أفريقيا ما زالت قدرتُنا على صَون مفكرينا، ومجتمعاتنا، ولغاتنا، وذاكرتنا قاصرة قصورًا مأساويًا.وكثيرًا ما يُجبر رموز الفكر النقدي على المنفى القسري، وتُفقد المؤسسات المعرفية شرعيتها، أو تُسخّر لخدمة السلطات القائمة في حين يتمّ إضعاف أشكال التضامن الشعبي بفعل وطأة منطق التفتيت الاجتماعي أو القمع السياسي الممنهج.

وعليه، فإنّ هذا العدد من غلوبال أفركا يعتبر نداءً عاجلًا نوجّهه من أجل استعادة هذه الموارد الوقائيّة وإعادة تفعيلها، ومنحها المكانة اللائقة بها ضمن منظوماتنا الفكرية والاجتماعية، والعمل على نقلها وتوريثها للأجيال القادمة كما يمثّل مناسبة رمزية بليغة الدلالة لتكريم شخصيتين بارزتين من رموز الفكر الإفريقي المعاصر، رحلتا عنّا مؤخرًا، وترك رحيلهما فراغًا عميقًا في الحقل المعرفي والنقدي؛ وهما: فالنتين-إيف موديمبي (Valentin-Yves Mudimbe) ونغوغي واثيونغو (Ngũgĩ wa Thiong'o).

How to cite this paper: الفيرمين مبالا. (2025). الشجاعة في الاستمرار . Global Africa, (9), pp. 15-17. https://doi.org/10.57832/faye-dd13

© 2025 by author(s). This work is openly licensed via CC BY-NC 4.0

فالنتين-إيف موديمبي (Valentin-Yves Mudimbe): محرّر المعرفة من الاستعمار ١

يُعدّ فالنتين-إيف موديمبي، الفيلسوف والروائي والناقد، من بين أبرز المفكرين الأفارقة في القرن العشرين وأكثرهم تأثيرًا. فمن خلال مؤلَّفه «ابتكار إفريقيا» (*The Invention of Africa*, 1988)، أحدث قطيعة معرفية في دراسات ما بعد الاستعمار، إذ كشف عن البنية العميقة لما أطلق عليه تسمية «المكتبة الاستعمارية» بوصفها مجموعة من النصوص الدينية، والانثروبولوجية، والإدارية، التي شكّلت إفريقيا بوصفها مجالا للمعرفة، وموضوعا للهيمنة وكيانا يتعيّن إنقاذه.

غير أنّ أثر موديمبي الفكري بين الفلسفة والأدب في ترحاله بين الكنغو الديموقراطيّة وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكيّة هو عبارة عن تأمّل في العبور، والتيه، وفي تعقّد الوجود الإنساني. إنّه فكرٌ يرفض القوالبَ المفهومية المغلقة والجاهزة، سواء كانت استعمارية أم قومية تتلوّن بلون»الأصالة» ويدعو إلى التفكير في إفريقيا من داخلها ولكن ليس بمعزل عن العالم وفي قطيعة معه. وعلى هذا النحو كان موديمبي مصدر إلهام على غاية من الأهمّية للمعارف الوقائيّة الأفريقيّة تعلّمنا منه أنّ فعل الوقاية يتمثّل كذلك في التفكير بطريقة مغايرة برفض المسلّمات، وبناء صرح معرفي تعددي، منفتح، قادر على احتواء التجربة الإفريقية في ثرائها وتنوّعها.

وعندما حاز فالنتين-إيف موديمبي على لقب دكتوراه فخرية من جامعة لوبومباشي في عام 2019، عبّر عن غبطته لاعتراف وطنه به أخيرًا، بعد أن كان قد كُرّم وتمّ الاحتفاء به في جميع القارات. ولم يكن تبرّعه في تلك المناسبة بمكتبته الخاصة إلى هذه الجامعة مجرّد فعل رمزي للنقل المعرفي، بل كان كذلك بمثابة نداء تحذيري صارخ لأنّ موديمبي، كغيره من العديد من المفكرين، اضطر إلى مغادرة بلاده هاربًا من النظام الاستبدادي لموبوتو سيسي سيكو الذي تميّز حكمه لجمهورية الكونغو الديمقراطية بين عامي 1965-1997بالقمع الممنهج واستشراء الفساد في كامل أنحاء البلاد.

لقد تقاعسنا عن القيام بواجبنا في حماية موديمبي ومع ذلك، لم ينقطع يومًا عن جذوره الأفريقية، ولم يكفّ عن التفكير من أجل إفريقيا وبالاندغام فيها رغم النفي والبعد القسري.

نغوغي واثيونغو (Ngũgĩ wa Thiong'o) : اللغة بوصفها مجالًا للمقاومة٢

يُعد نغوغي واثيونغو ، الروائي والمسرحي وكاتب المقالات، من أبرز الأصوات النضالية في مسار تفكيك الاستعمار الثقافي. وُلد إبّان الهيمنة البريطانية على بلده كينيا، وسرعان ما أدرك، منذ بواكير وعيه، أنّ اللغة ليست مجرّد وسيلة للتواصل، بل ميدانٌ للصراع ومجالٌ للسيادة. فبعد أن كتب مؤلفاته الأولى باللغة الإنجليزية، قرّر أن يتّخذ من لغة الكيكويو (kikuyu)، لغته الأم، أداةً للتعبير والإبداع، وأن يكتب بها المسرح والرواية والمقالة. وقد مثّل هذا القرار فعلًا حاسمًا ذا طابع رمزي ومقاوم: إذ حماية اللغات الإفريقية، في تصوّره، تعني حماية المخيّلة الجمعية، والذاكرة التاريخية، وأشكال الرفض والممانعة

تمثّل أعماله بدء من «أزهارالدم» وصولا لى «تفكيك العقل الاستعماري»((Decolonising the Mind)، الصادر سنة 1986، دعوةً ملحّة إلى إبداع أدبٍ متجذّر في التربة الثقافية الإفريقية، وإلى فكرٍ متمرّد على الأنساق الاستعمارية، وإلى الالتزام بالعمل من أجل أن تستعيد أفريقيا سرديّتها الذاتية، وتكتب نفسها بنفسها. غير أنّه كان لهذا الالتزام الفكري والأدبي ثمن باهض دفعه من جسده وكيانه، فقد تعرّض للسجن، وخضع للرقابة، واضطرّ إلى المنفى لأكثر من عشرين عامًا. وعندما قرّر العودة إلى كينيا سنة 2004، تعرّض، هو وزوجته، لاعتداء مشين ومهين. وقد قصّرنا، جميعا في واجب حمايته.

ولم يكن ذلك الحدث سوى تجلٍّ من تجلّيات أزمة أعمق، إذ نبّه عدد من الملاحظين إلى أنّ جذور تلك الإهانة العنيفة تعود إلى الانهيار الرمزي للمؤسسات الثقافية، مثلها في ذلك مثل المكتبات التي نُهبت محتوياتها أو تمّ إتلاف ما فيها من كتب عن قصد. وقد غدت تلك اللامبالاة تعبيرًا عن تآكل الحسّ المدني وضمور الفضيلة العامة[3]. ورغم ذلك، فإنّ نغوغي لم يتوقّف قَطّ عن الكتابة، ولا عن الحلم، ولا عن نقل المعرفة. لقد آمن بأدبٍ يفتح الأفق أمام الفلسفة، والعلوم، والتكنولوجيا. ومن هذا المنطلق، فهو يُعتبر شخصية مرجعية لما أطلقنا عليه تسمية « المعرف الوقائيّة» إذ بيّن أن الوقاية تعني كذلك أن نفعل فعلا خلّاقا، وأن نترجم ونعلّم ونتعلّم ونقاوم.

---

1 حول فالنين إيف موديمبي أنظر : Aka-Evy, J.-L. (2018). *L'Œuvre de V.Y. Mudimbe et la réinvention de l'Afrique*. Karthala et le documentaire Bekolo, J.-P. (Réalisateur). (2015). *Les Choses et les Mots de Mudimbe* [Film documentaire, 243 min]. JPB Productions offre un regard poignant sur la vie et la pensée du philosophe

2 لتعميق معرفتك وإثرائها حول نغوغي واثينوغو أنظر: Pour Gikandi, S. (2001). *Ngũgĩ wa Thiong'o*. Cambridge University Press.

3 Onyango-Obbo, C. (2004, 16 août). *Ngugi's attack: It all started in our libraries. The East African*. Récupéré de https://www1.swarthmore.edu/SocSci/tburke1/perma83004.html consulté le 7 juin 2024).

إرثٌ ومسؤولية

إنّ استحضار هذين المفكّرين العظيمين لا يُعدّ مجرد اعتراف بالجميل لهما وتخليدا لذكراهما، بل تذكيرًا ملحًا بمسؤولياتنا الجماعية. ذلك أنّه، في الوقت الذي نُشيد فيه بإنجازات موديمبي ونغوغي، لا يزال آخرون في القارّة ذاتها يرزحون، في صمتٍ أو في ظلّ لامبالاة عامة، تحت قمع السلطات القائمة وعنفها.

ففي دولة بنين، يقبع أستاذ القانون الدستوري جويل آيفو (Joël Aïvo) خلف القضبان؛ وفي الكاميرون، أُلقي بالباحثين في العلوم السياسية ألان فوغيه (Alain Fogue) وعبد الكريم علي في غياهب السجون أمّا في غينيا، فقد اعتُقل الباحث عليو باه (Aliou Bah). لقد دفع جميع هؤلاء ثمنًا باهضا لأفكارهم ومواقفهم. ومع ذلك، فإنّ الأوساط الأكاديمية الإفريقية، في كثير من الأحيان، تلوذ بالصمت جبنا وتخاذلا منها في الدفاع عن حرّية الفكر.

وكما نبّهت إلى ذلك الباحثة نادين ماشوكو (2024)، فإنّ الأطر القانونية الدولية ما تزال عاجزة عن توفير الحماية الكافية للجامعيين والباحثين الأفارقة[4]. من هنا، تبرز الحاجة الملحّة إلى إنشاء آليات لحمايتهم تنبثق من واقعنا، وتتجذّر في شبكات تضامننا، وتستند إلى معارفنا، وخبراتنا، ورؤانا. وهذا بالضبط ما نرنو إليه ويُضفي على هذا العدد من مجلتنا دلالته العميقة ألا وهي التفكير في المعارف الوقائيّة بوصفها أدواتٍ للمقاومة، وآلياتٍ للرعاية، ووسائلَ للتحوّل نحو الأفضل. لقد ترك لنا كلّ من موديمبي ونغوغي أدوات للتفكير ومسؤولية استعمالها تقع على كاهلنا لأنّ فعل الوقاية هو في جوهره، فعل مقاومة وشرط للوجود نهدي هذا العدد من غلوبال أفركا إليهما كما نهديه إلى جميع أولئك الذين، مثل كويو كوو (Koyo Kouoh,) ، لم تُذكر أسماؤهم هنا، لكنّ أعمالهم توازي الحياة وتُكافئ الحرية. فنضالاتهم تُذكّرنا بأنّ معرفة كيفية الوقاية تبدأ، أحيانًا، بفعل بسيط يتمثّل في خرق الصمت.

وعليه، فإنّ هذا العدد من غلوبال أفركا ليس مجرّد إصدار علمي، بل هو بيان فكري يؤكد أنّ المعارف الواقية ليست مجرّد ركام نرثه عن الماضي، بل هي اجتهادات آنية وتجسيد لطاقات حيويّة فاعلة، ومحفّزات للتحرّر والإقدام. يُذكّر هذا العدد كذلك بأنّ حماية المعرفة تقتضي، بالضرورة، حماية أهلها: مَن ينتجونها ومَن يتداولونها . فالمعارف الوقائيّة ليست تقنيات أو أدوات فقط، بل هي نظام أخلاقي ومنهج في السلوك يستوجب منّا أن نمدّ اليد للمرأة ضحيّة العنف الزوجي، وللفتاة التي خُتنت أو زُوّجت قسرًا كما تستوجب منّا أن نقف إلى جانب الأستاذ الجامعي المهدَّد بسبب مقالة، والفنان الذي يتمّ إخضاعه للرقابة، والطالب الذي ضُرب لأنه رفع لافتة. أنْ نحمي، معناه أن نرفض التواطؤ بالصمت.

4 Machikou, N. (2024). Are African scholars at risk? The invisibility of Africans in relief policies for endangered academics. Dans L. Dakhli, P. Laborier & F. Wolff (Eds.), *Academics in a century of displacement: The global history and politics of pro-tecting endangered scholars* (pp. 263–290). Springer VS. https://doi.org/10.1007/978-3-658-43540-0_11